تصور علاقة الصوت (الحرف) بمعناه عند العرب وفي اللسانيات الغربية الحديثة

رابحي محمد
جامعة ابن خلدون تيارت

توطئة:

شمل اهتمام العرب والمسلمين بعلاقة الحرف بمعناه، حروف المباني وحروف المعاني Articles grammaticales ou les conjonctions. بحكم ما يميز لغتهم العربية من خصائص نحوية وصوتية سيأتي ذكرها، وإن كانت الغلبة لحروف المعاني نظرا لهيمنة النحو بوصفه منهجا لتقويم اللسان وتجنب اللحن الذي أملته طوارئ ثقافية معروفة في التاريخ العربي الإسلامي.

- علاقة الصوت (الحرف) بمعناه عند العرب والمسلمين:

ويمكن تحديد الجذور الأولى لهذه العلاقة انطلاقا من تفضيل العرب لكلمة (لسان) على كلمة" لغة". فالمفهوم العام لكلمة (لغة) لم يُعرف إلا في نهاية القرن الثاني الهجري، وذلك على عكس كلمة (لسان) الأكثر تداولا منذ الشعر الجاهلي والذي كان يعني: "الدلالة على الكيفية الخاصة التي يمتاز بها قوم عن قوم عربا كانوا أم عجما في تأدية لفظ معين، إما في النطق به أ وصياغته أوتركيبه[1]، ثم تداخل المعنى الاصطلاحي للسان مع المعنى الاصطلاحي للغة بعد ذلك بعدة قرون كما نقل ذلك ابن منظور في "لسان العرب" حين قال: "اللغة: اللسن وحدها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وهي فعلة من لغوت: أي تكلمت"[2]. وقد جعل القرآن الكريم البيان مرتبطا بأداء اللسان حيث تتولد الأصوات من مخارجها بصفاتها الأصلية والعرضية كما في قول الله تعالى:{**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .....**}*، وكما في قوله تعالى كذلك: {**نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين....**}**.

وقد كان لعلم القراءات القرآنية دور عظيم في ضبط العلاقة بين الصوت ومعناه انطلاقا من علم الرسم التوقيفي للحروف، حيث يمثل التوجيه الصرفي والنحوي للقراءات ميدانا لتجويد الحروف ضمن أحكام الترتيل وما لصفاتها من أثر في تجلية معنى اللفظ عند لبسه بغيره، كما عبر عن ذلك إمام القراء العلامة الجزري في منظومته الجزرية:

وخلص انفتاح محذور عسى خوف اشتباهه بمحظور عصى[3]

والإجماع قائم على الدور الذي أداه أبو الأسود الدؤلي بأمر من الإمام علي كرم الله وجهه في ضبط المصحف الشريف رسما وتنقيطا من أجل الحد من اللحن الذي فشا بسبب اختلاف اللهجات وأحرف القراءة من جهة، وانتشار الإسلام بين الأعاجم من جهة أخرى، حيث كانت الحروف الأبجدية العربية غير معجمة منقوطة ولا مشكلة بحيث تتميز فيها الحركات الإعرابية رفعا ونصبا وجرا على أواخر الكلم، أو بالأحرى الأحرف، مما أدى إلى لبس المعاني وغموضها. وقد أضيفت إلى جهود أبي الأسود الدؤلي في ضبط حروف المباني جهود علماء الأصول وعلى رأسهم الإمام الشافعي في ضبط حروف المعاني وأثرها في دلالة الألفاظ على معانيها المتنوعة تخصيصا وتعميما، وإطلاقا وتقييدا في كتابه الرائد الرسالة.

ولم تكن هذه المباحث محض مصادفات، بل كانت خاضعة لقانون لساني لغوي عام، كما يرى ذلك الدكتور صبحي الصالح مقررا "أن اللغات السامية تمتاز بدلالتها على المعنى الأصلي باعتمادها على حروف المباني، وفي تفرقتها بين المعاني المتكافئة باستخدام حروف المعاني أو الحركات"[4]. وكانت العرب يستعمل الحرف بمعنى الصوت، كما تستخدمه اللسانيات الآن، وعند التفرقة بينهما، والدلالة على أن الأول- أي (الصوت)- أصل للثاني-أي(الحرف)-، كانوا يقولون: "وأما صورة (الصوت) في الخط أي في الكتابة فكذا وكذا..."[5]، فالصوت اللغوي أصل والكتابة تابعة له، لأن الكتابة كما يقول علماء اللغة العرب تابعة للصوت، فهو أصل وهي رمز له.

أ- ومن حق كل حرف صوتي أن يصور بحرف خطي يختص به والعكس صحيح.

ب- أن يصور الخط كل ما هو موجود في اللفظ "[6]

ولقد ذكر بعض الباحثين الأكاديميين[7] أن للخليل بن أحمد الفراهيدي كتابا خاصا عنوانه" الحروف"، الذي حققه د. رمضان عبد التواب ونشر في القاهرة سنة **1969**، بحيث لم نتمكن من العثور عليه أثناء إعدادنا لهذا البحث. ويرى الأستاذ محمد المبارك " أن النظرية القائلة بأن الحرف المفرد أسبق في الوجود من الكلمة المركبة هي نظرية غير مسلم بها"[8]، وهي نظرية يشير إلى جذورها في الفكر اللغوي العربي القديم ابتداء من جهود الخليل بت أحمد الفراهيدي في معجمه العين في القرن الثاني الهجري، عبر نظرية الاحتمالات الضابطة للمعنى انطلاقا من التصاقب أو "التقليب الحاصل بين الحروف في بنية الكلمة" إثباتا للمستعمل وردا للمهمل مع ترتيب الحروف بدءا من المخارج القصوى في الجوف لغاية الشفتين.

وهي نفسها النظرية التي أخذ بها تلميذه سيبويه في "الكتاب" مفصلا بعض ملامحها في الجزء الرابع كما سنشير لاحقا. وقد أشار اللغوي الشهير ابن جني في "الخصائص" إلى جهود هاذين الرائدين فقال: "هذا موضع شريف نبه عليه الخليل وسيبويه "[9] ملفتا النظر بذلك إلى المناسبة القائمة بين الحروف ومعانيها، ثم قال: "وتلقته الجماعة بالقبول"[10]. ويستشهد بعد ذلك بنماذج لهذين العالمين السابقين له في المصدر السابق ذكره فيقول مبينا مذهب العرب وكيف أنهم يصورون اللّفظ على هيئة المعنى انطلاقا من التوظيف لصفات الحروف المتقاربة في المخرج لبيان المعنى المراد للفظ: "وهذا مذهب قد نبه عليه الخليل وسيبويه، قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة فقالوا في العبارة عنه **صر**، وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا **صرّ صرّ**. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على فَعَلَان بثلاث حركات: إنها تأتي للاضطراب والحركة نحو الغليان فقابلوا توالي الحركات في الأفعال بتوالي المعاني في الأمثال "[11].

كتابه الرائد الرسالة.

والمعروف أن الحركة ترتبط أصلا بنطق الحرف. وهي تتعاون مع صفاته عبر موقعه في بنية اللفظ لتحقيق المضارعة في المعنى عبر النسب اللفظي بين الأصوات وهو ما عبر عنه ابن جني في تعليله للتقارب المسوغ للإبدال: إنها أخوات الأحرف المبدلة[12]. وهذا بالنسبة للقيمة التعبيرية للحرف الواحد مع أخيه في حال التركيب، على القول بالثنائية للفظ العربي في أصوله البنائية سواْ أكانت تاريخية ذات مقطع واحد، أم معجمية ضعف حرفها الثاني فأصبحت ثلاثية بواسطة الشدة[13].

ولكن ابن جني انطلق من حالة التركيب متوغلا لحالة البساطة مكتشفا القيمة التعبيرية للحرف الواحد "وهو جزء من كلمة يقع على صوت معين، ثم يوحي بالمعنى المناسب سواء أكان في أول اللّفظ أم وسطه أم آخره"[14]. ولعله المعني مباشرة بما قرره الدكتور مصطفى جواد قي بحثه حول أسرار الحروف العربية قائلا: "وكان الرأي الشائع الذائع أن "حروف المباني "لها معان تأليفية تركيبية نسبية، وليس لها معان فرودية ثم فطن أناس من علماء الصرف و اللغة إلى أنه لا يمتنع أن يكون لها معنى نسبي ومعنى فرودي"[15] . ويقصد بالمعنى النسبي ما عناه الدكتور صبحي الصالح بالقيمة التعبيرية للحرف في حالة التركيب. ويقصد بالمعنى الفرودي القيمة التعبيرية للحرف العربي في حالة البساطة.

ومن الأمثلة التي يستشهد بها ابن جني مما وقع في أول الكلمة صعد وسعد فيقول: "فجعلوا الصاد لأنها أقوى لما فيه أثر مشاهد يرى، وهو الصعود في الجبل والحائط ونحو ذلك، وجعلوا السين لضعفها، لما لا يظهر ولا يشاهد حسا إلا أنه مع ذلك فيه صعود الجد* لا صعود الجسم..."[16] ، ولكن مع إثبات ابن جني القيمة التعبيرية للحرف الواحد

إلا أنه يرى تصنيف الحروف إلى مجموعات صوتية تشارك في أداء معنى عام كما يثبت ذلك في "الخصائص" من أن "ازدحام الدال والتاء والطاء والراء اللام والنون إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما"[17].

وبقيت الجهود العبقرية لابن جني سارية المفعول، واعتمد عليها معجميون كبار كابن فارس في "المقاييس" لضبط دلالة معاني الألفاظ، حتى القرن العاشر الهجري حيث كشف الإمام السيوطي في المزهر[18] جذورها اللسانية الصوتية انطلاقا من صفات الحروف.

يقول السيوطي رحمه الله: "فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخف، والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا"، يقصد من (المعاني والأفكار وتسمية المحسوسات الدالة عليها)، ثم يقول مردفا: "وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسا"[19]. فما سر هذه الظاهرة اللغوية المطردة في العربية التي ضبطت ملامحها بين حدي سبعة قرون من ابن جني إلى السيوطي، ومازالت مجال اهتمام الباحثين لحد الآن؟ ولماذا انفردت بها العربية دون أخواتها الساميات بل بقية لغات العالم؟ أهناك تعليلات منطقية لتفسير ذلك استخرجها المتخصصون وأثبتوها؟ أم لا ؟، أو بمعنى آخر، لماذا بقي للحرف كصوت (فونيم) قيمته التعبيرية وا لإيحائية في اللغة العربية، بينما انقرض ذلك في معظم اللغات السامية شقيقات اللغة العربية في الخصائص اللسانية العامة. يقول الدكتور عبد الرحمان حاج صالح في بحثه القيم: "مدخل إلى دراسة اللسان البشري" معددا **الأسباب التاريخية**:

1- ان انعزال أهل اللغة العربية في شبه الجزيرة العربية منذ آلاف السنين، ساعد كثيرا على بقاء البنية الأصلية لجذور كلماتها* بعكس اللغات السامية الأخرى والتي خرج بها أصحابها عن الموطن الأصلي (شرق الجزيرة وبلاد الرافدين والشام)، كالأكادية مثلا والتي فقدت أكثر الحروف الحلقية والإعراب.

2- ارتكاز بناء الأصول فيها على الحروف الجوامد (الحروف الصحيحة) أي الصوامت لا على الصوائت، وهي حروف العلة والحركات كما هو الحال في اللغات الهند أوربية،حيث الأمر قائم في بناء أصول المادة اللغوية أو اشتقاقها على النحت[20] والإلصاق لهذه الصوائت (الحروف اللينة) والتي تمثل زوائدا كسوابق للحروف الأصلية أو لواحق لها تعمل على تغيير معنى الجذر الأصلي[21] Les voyelles

3- فحاجة هذه اللغات إلى الحروف المصوتة ضروري لضبط المعنى العام لعدم استقرار حروفه الجامدة على حالة واحدة في تصريف الكلمة واشتقاقها[22].

4- أن أصول كلماتها ليست متحدة في عدد أصواتها، كما هو شأن الأصول السامية، بل تختلف في ذلك اختلف اختلافا كبيرا، فمنها الثنائي، ومنها الثلاثي، ومنها الرباعي[23].

5- أن الأصل الدال على المعنى العام للكلمة هو نفسه بمنزلة كلمة مستقلة يمكن فصلها والنطق بها على حدة، وقد يتحقق هذا الفصل في الواقع أحيانا، فيبقى الأصل في الكلمة مجردا من كل عنصر آخر،[24] ويضاف لهذه الأسباب مبررات أخرى علمية ذكرها الأستاذ محمد المبارك في كتابه: فقه اللغة وخصائص العربية[25] في باب الاشتقاق ومنها:

أ- **الاشتراك في الأصوات الأصلية**: إن القدر المشترك بين الألفاظ التي ترجع إلى أصل واحد، هو في اللغة العربية ثلاث حروف ويسمى مادة الكلمة وهو الأساس الذي اتخذ في ترتيب المعاجم العربية فقد رتبت الألفاظ (أي هذه المعاجم) وجمعتها بحسب أنسابها وأصولها ...[26]

ويرى الدكتور صبحي الصالح أن ابن جني صرح في الخصائص "أن المصدر مشتق منه الجوهر كالنبات من النبت والاستحجار من الحجر"[27] كما نقل عن ابن مالك الأندلسي في التسهيل " انفراد الرباعي بـــ فعلل لازما ومتعديا بمعان كثيرة وقد يصاغ من اسم رباعي"[28]، فصرح باشتقاق الفعل الرباعي (فعلل) من اسم رباعي* وهو يريد اسم العين لا شيئا آخر"[29]. إن هذه الحروف والأصوات الثلاث هي العنصر الأساسي في تركيب الكلمة العربية، وهي كذلك العنصر الثابت فيها.

ب- **الاشتراك في المعنى العام**: "إن الألفاظ التي تشترك في الحروف أو الأصوات الثلاث الأصلية، تشترك كذلك في معنى أصلي عام ينظم مفرداتها ويسميه ابن فارس في "مقاييسه" الأصل[30]، ويصدر به الكلام في كل مادة، ثم تأتي الصيغ الصرفية لتنوع المعنى العام عبر أحرف الزيادة – سألتمونيها-.

ج- **أن تكون هذه الحروف مرتبة ترتيبا واحدا في هذه الألفاظ**: إن هذا الارتباط بين ألفاظ العربية والذي يقوم على ثبات عناصر مادية ظاهرة وهي الحروف أو الأصوات الثلاث وثبات قدر من المعنى سواء أكان باديا ظاهرا أو مختفيا مستترا لخصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغة تشعر متعلمها بما بين ألفاظها من صلات حية تسمح لها بالاشتقاق المنهجي والتوليد السوي"[31].

علاقة الصوت (الحرف) بمعناه كما تتصوره اللسانيات الحديثة :

لم نشأ أن نتتبع المسار التاريخي لهذه العلاقة خلال عصر النهضة الأوربية حتى القرن العشرين، وهو مسار طويل تبلورت فيه اللسانيات التاريخية*[32] مستعينة بالمنهج المقارن في دراسة اللغات الإنسانية، حيث كان قد انطفأ وهج الحضارات العربية الإسلامية بعد ازدهارها، كما استعرضنا في القرون الوسطى لينطلق الغرب على الأصول اليونانية اللاتينية في نهضته الشاملة، ومنها اللسانيات، حيث ساد المنهج المعياري الذي جعل من تراث الإغريق أنموذجا مطلقا يطبق بصورة آلية على اللغات الأخرى في العالم عبر استخدام آليات المنطق الأرسطي في كلياته،كالكم والكيف الخ، وعقلانية ديكارت الصارمة في الشك المنهجي.

وكان العالم الألماني "بالاس" (1741- 1811) قد وفر إطارا موضوعيا لفرديناند دوسوسير بعد ذلك عبر إحصائه التاريخي ومقارنته للغات العالم في كتابه "معجم المفردات المقارنة بين جميع لغات العالم" "وكما قلنا سابقا فلقد تجددت الدراسات اللغوية في الغرب الأوربي في القرن التاسع عشر (19) الميلادي وكانت خاضعة لتيار هذا العصر، وهو النظر للظواهر من خلال تطورها التاريخي فقط.

وكانت هذه النزعة قد طغت على كل دراسة، فكانت اللسانيات الحديثة كرد فعل على هذه النزعة، إذ نادى مؤسسها وزعيمها دوسوسير إلى التمييز بين الدراسة التاريخية، والدراسة الوصفية التي تتناول الظاهرة في ذاتها، من حيث هي لا من حيث تحولها في الزمان، فنمت هذه النزعة الوصفية أيما نمو، فترك الناس مفهوم التحول التاريخي كمحور رئيسي للدرس اللساني، وتبنوا مفهوم "البنية" كمفهوم أساسي في تناولهم للظواهر اللغوية"[33]. وحتى لا نذهب بعيدا عن روح الموضوع في نهاية هذا الفصل والمتعلقة بتصور الغربيين: لعلاقة الصوت (الحرف) بمعناه سواء أكان مفردا أم مركبا نتساءل عما يلي:

فما هو السر أو المبررات العلمية إن وجدت في القول بالاعتباطية في تصوره للعلاقة بين اللفظ والمعنى على مستوى العناصر الدالة كالمورفيمات، وبين الصوت المفرد (الحرف) ومعناه على مستوى العناصر غير الدالة في نظره وهي (الفونيمات) ؟ وهو ما يعنينا كشفه في هذا الفصل.

1- "فالمعروف عن دوسوسير أنه أمضى معظم حياته في دراسة اللسانيات التاريخية والمقارنة، ويستخدم المنهج الوصفي البنيوي في التحليل للساني، الا في أخريات أيام حياته في اللسانيات الآنية الزمنية"[34]، "واذا كانت لفظة "الجملة" و"الجملة المفيدة" لم تردا في كتاب "سيبويه" فإن كلمة "بنية" لم ترد في كتاب دوسوسير إلا عرضا بما لا يتعدى أصابع اليد الواحدة ومع ذلك فهو مؤسس البنيوية.

"فلم يستعمله دوسوسير باعتباره مصطلحا، وإنما Texte باعتباره نصا ساقيا. والأمر نفسه بالنسبة للمصطلح "نص" ورد في كتابه [محاضرات في اللسانيات العامة] عرضا في سياق حديثه عن موضوع الدراسة الفيلولوجية باعتباره علما يتناول ضبط النصوص وتأويلها والتعليق عليها"[35]

2- "وبالتالي جعله هذا ينظر للغة على أنها مجرد "أشياء" أي ما أطلق عليه البنية القابلة للتحليل الجزيئي كما هو الحال في المنظور الفيزيائي للمادة، الخاضعة لمحك التجربة"[36]

3- وهذا الإلحاح منه على القول بالشيئية جعله يدمجها(أي اللغة) ضمن الرموز العامة غير اللغوية في الميدان السيميائي كما جعله يعتبر العلامة اللغوية مجرد علامة اعتباطية كغيرها من العلامات غير اللغوية.

4- ولقد كان لتخلي معظم علماء اللسانيات في عصره عن المنهج التاريخي والمقارن فجأة بعد أن استقرت عليه عقليتهم عشرات السنين ما يشبه الصدمة العنيفة لديه التي أزاحته بدون مقدمات في اتجاه استخدام المنهج الوصفي البنيوي في التحليل اللساني، والذي لم يتمرس عليه طويلا، إذ لم يستخدمه إلا في آخر حياته[37]، مما جعل نتائج بحوثه غير دقيقة في نظر كثير من الباحثين النقاد.

5- ثم كان استخدامه لهذا المنهج بتسرع أثر بالغ في فقدانه للنظرة المتوازنة في النظر إلى قضايا اللغة و اللسان حيث:

أ- رجح ب- النظر إلى اللغة على أنها نظام بنيوي بحت ومغلق تدرس مستوياته من ذاتها ولذاتها من داخل النسق فقط مما جعله يهمل الأبعاد المعجمية والنحوية الحاملة للمعنى في اللفظ والسياق ويقول باعتباطية اللفظ فما بالك بالصوت ومعناه، وهذا ما استدركه عليه تشومسكي في نظرية النحو التوليدي التحويلي[38]، الذي تجاوز الرؤية الوصفية إلى البنى النحوية ثم التركيز على العنصر الدلالي في تفسيره لمعاني البنى المختلفة بما فيها الحرف ضمن ما سماه بالنظرية النموذجية المتناولة للبنية السطحية والعميقة معا سياقا ونسقا[39].

6- النظر إلى اللغة من حيث إنها نظام جامد لا على أنها نظام يتحرك فيه المتكلم ويتفاعل مع أنظمته المختلفة، ودور المتكلم كان قد تجاهله "البنيويون" زاعمين أن النظر من هذه الزاوية هو من اختصاص علماء النفس[40] فقط "والآن وقد تفرق العلماء أكثر من فرقة، فقد أيقن الأصل منهم، أن الدراسة العلمية للغة ينبغي أن ترتبط أشد الارتباط بالعلوم الدقيقة والتجريبية، وذلك كالبيولوجيا والطب والرياضيات وفيزياء الصوت[41] لأن اللسان البشري هو ظاهرة ذات جوانب متعددة، وليست فقط نظاما من الرموز .

- ففيها الجانب الصوتي في بعديه (الفيزيولوجي والفيزيائي)،

- وفيها الجانب الانتظامي الرياضي من خلال ضوابط المنطق،
- وفيها الجانب النفساني والاجتماعي.

ولقد اكتفى دسوسير بوضعها في الوسط الاجتماعي فقط ملغيا سائر الجوانب الأخرى"، غير أن ليونارد بلومفيلد الذي يعتبره جورج مونان أحد آباء البنيوية ينفي كل إحالة إلى ما هو مفترض حدوثه في ذهننا عندما نتكلم، أي يرفض اللجوء إلى ذلك الاستبطان الذي عهدناه لدى اللغويين القدماء وحتى لسانيين محدثين، ومنهم دوسوسير نفسه، ومن ثم عد بلومفيلد قضية المعنى[42] إحدى نقاط الضعف في اللسانيات"[43]. وولعُ الرجل باعتباطية العلامة اللسانية لم ينسه أن يعالج هذه المسألة لاحقا ليفرق بين ما قد "يكون اعتباطيا مطلقا، وما قد يكون معللا نسبيا، ضاربا أمثلة عديدة من ذلك أن" (عشرون) vingt التي توجد معللة بفضل إيحائها بالعبارات التي تتركب منها، وبالأخرى dix-neuf تسعة عشر غير معللة على (تسعة وعشرين أي **vingt-neuf** و(ثمانية عشر) **huit–dix** و(سبعون)، **soixante-dix** التي ترتبط بها مثلها غير معللة[44].

الكلام المنطوق على الكتابة، أي الصوت البحت على الحرف المرسوم الممثل له، فإذا أخذنا كلا منها في إطار هذه الاعتباطية لم يرجح دوسوسير بين النسبي والمطلق منهما في العلامة اللغوية "معترفا أن تصورنا للغة ما يكون الكل فيها معللا تصور أو ضرب من الخيال فأي لغة من اللغات إلا وهي اعتباطية جذريا ومعللة نسبيا، ومتى بلغ التعليل ذروته في لغة من اللغات تكون أكثر لفظية"[45]ويقصد بالتعليلية وجود المناسبة المنطقية بين اللفظ ومعناه، وأما الجذرية فيريد بها وصول التعليل إلى مستوى الأصوات التي تكون لحروفها دلالة، وهي الحروف التي تجعل اللغة أكثر لفظية باعتبار التركيب.

وفي القرن التاسع عشر نفسه والذي برز في أواخره دوسوسير كمنظر لساني، ظهرت نظرية الفونيم (الصوتون) والتي بوجهات نظرها المتنوعة للغة واتجاهاتها المتقاطعة — فجرت بنية اللغة كما أطرها دوسوسير.ضمن الدراسة الوصفية لها من ذاتها ولذاتها، حيث شبهها البعض "باختراع"[46]* الطاقة النووية بعد تفجير بنية الذرة في الكون، ونظرية الفونيم. تمتد بجذورها تاريخيا في أعماق البنية الصوتية للغا ت الهندوأوروبية التي تعتمد على الصوائت أكثر كما ألمحنا سابقا حيث تتجلى الملامح الأولى لهذه النظرية في النظام الصوتي للغة السنسكريتية الهندية، وكذلك اللغة اليونانية.

ولقد تحدث الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر[47] عن المخلفات الجانبية للصراع القائم بين التيارات المختلفة ضمن هذه النظرية العامة، والانقسام الذي حصل بين أنصار القصدية وأنصار الاعتباطية، حيث كان يرى أصحاب التيار الأول ضرورة تقنين التغيرات الصوتية وتقعيدها وفي ظلها(أي القوانين الصوتية) يمكن متابعة التغيرات الصوتية ودلالة

معانيها، وبين أنصار الاعتباطية الذين كانوا يرون أن التغيرات الصوتية تحدث في اللغة طفرة أي عن طريق المصادفة البحتة، وبالتالي لا معنى للصوت ثابتا أو متغيرة صفاته.

وعدم حصول الإجماع حول هذا الإشكال ضيّق من هيمنة الاعتباطية وأعطى فسحة لبروز اتجاهات قائلة بدلالة حرف المبنى، كما سنفصل الحديث عنها في الفصل الثالث من خلال نظرية الفونيم (الصوتون) المحتمل على مصوت ولا مصوت Aphone وPhone.

ولقد تعرف العرب على هذه المصطلحات أثناء ازدهار الترجمة عن اليونانية في العصر العباسي من خلال مركز بيت الحكمة، حيث استبدل ابن سينا "لا مصوت" بـــ: "صامت" واستبدله النحاة العرب بمصطلح "جامد"، حيث راعوا في هذه التسمية كيفية خروج الحرف الصامت ولم ينظروا إلى صفته الصوتية.

فمعنى الجمود – والله اعلم – يرجع إلى كون المخرج محققا يكون محدود الحيز، ومنضبط لا يتزحزح فيه الحرف أثناء خروجه بعكس الصفة[48].

ولقد سبق وأن ألمحنا إلى الكثير مما أكده الباحثون المعاصرون كالدكتور عبد القادر عبد الجليل في كتابه" علم الصرف الصوتي"[*] من استخدام علماء العربية القدماء مصطلح الحرف للدلالة على الصوت إذ أن الحرف والصوت اللغوي عندهم شيء واحد، وهذا تتفق مع مفهوم علم اللغة الحديث للفونيم)[49]

أ- ومع وجهة النظر المادية الفيزيائية لنظرية الفونيم التي صبغ مصطلحها "الفونيم" في سنة 1879 من طرف كروسزفسكي تلميذ كورتين وغيره ممن سبقه وتني withney قلت ضمن هذه الوجهة : نظر إلى الفونيم الذي تضاربت مصطلحات ترجمته في العربية إلى أكثر من تسع كما يثبت ذلك الأستاذ ناصر الزغول في دراسة أكاديمية بمجلة "دراسات أدبية" المشار إليه آنفا (ص:93-94)، "على أساس عضوي من خلال ثنائية النطق والسمع مع استيعاب التمثيل الكتابي"[50] وحيث يمنع التركيب تمييز التشابه بين صوتين كلاميين"[51]. وقد تبنى هذه النظرية المادية دانيال جونز. بعد تلقفه لمصطلح ومفهوم الفونيم (الصوتون) ممن سبقه.

ب- ومع وجهة النظر العقلية أو النفسية والتي قام بها **جان بدوين كورتني و تروبتسكوي**، تم تجاوز النظرة البنيوية السابقة والقائمة على البعد الأكوستيكي إلى الفضاء النفساني ببعديه العقلي والنفسي حيث الفونيم" هو الصورة العقلية للصوت، أو هو "أفكار صوتية"[52]. وهكذا بدأت العودة إلى الاتجاه القائل أن للحرف معنى، وأن الفكر له مظهر صوتي مسموع ضمن "منهج يلقي عبء القضايا اللغوية على غير اللغويين كعلماء النفس"[53].

ولعل هذا يؤكد ما نقلناه عن العلامة اللغوي الجزائري د/عبد الرحمان حاج صالح من ضرورة تجاوز النظرة الدوسوسيرية القائمة على أن اللغة نظام بنيوي مغلق وبحت، إلى النظرة الشمولية التي تتضمن الجانب النفساني والعقلي والاجتماعي.

ج- ومع النظرة التجريدية، نجد أنفسنا وقد توغلنا أكثر بعيدا في تصور علاقة الصوت (الحرف) بمعناه في اللسانيات إلى نظرية الوحي والإلهام أو التوقيف في مقابل الوضع والاصطلاح. وتنادي بالقول بالتجريد وقد تبناها علماء من أقصى الغرب الأمريكي **كتودال وبالمر** ومن أقصى جزر اليابانية شرقا **كجيمبو**، حيث قرروا "أن الفونيم وحدة تجريدية تخيلية مصطنعة مستقلة تماما عن خصائصها الصوتية "[54]، وقد تزعم هذا التصور **تروبوزكوي**، وعلى ميدان تصارع هذه الاتجاهات الثلاث تولد سؤال كبير وهو: هل الأصوات اللغوية تحكمها قوانين سواء في جانبها الأكوستيكي والوظيفي أم لا؟

1- ووافق العالم الألماني **ليسكاين**، بأن هناك قوانين صارمة تهيمن على السياق الصوتي زمانا ومكانا ولهجة، ضمن تغيرات مضبوطة[55]،" وممن دافع عن هذه الرؤية النحاة الشبان أو المحدثون في ألمانيا والذين رأوا أنه لا استثناء في القوانين الصوتية"[56]، "وألغوا الهيمنة المنطقية على التأويل اللغوي مستدلين بالتفسير السيكولوجي مع تعميمه على اللغة الفصيحة واللهجات معا"[57].

ولا شك أن وجود أعلام مستشرقين كبار ضمن هذه المدرسة ممن تخصصوا في التعمق الدراسي في اللغات السامية كبر وكلمان ونو لدكه، مع إلمامهم بفقه اللغة العربي في التراث الإسلامي وخاصة ما ذكره ابن جني في الخصائص"، كل ذلك جعلهم يحسمون أمرهم بأنه "لا يمكن تطوير اللغة بدون معرفة القواعد والأسس التي بنيت عليها، والتي لاشك في وجودها بغض النظر ان كانت توقيفه أم لا في الأصل منها دون المولد".

2 - وعلى النقيض من ذلك: "هناك مجموعة أخرى من اللغويين تنادي بأن التغيرات تحدث في اللغة عن طريق المصادفة البحتة، ولكن هذه النظرة لاتقل تطرفا عن نظرة المتعصبين لفاعلية القوانين الصوتية، حيث ان الشواهد والحقائق تثبت عكس ذلك "[58] .

ومن بين كل الاتجاهات المنضوية تحت نظرية الفونيم (الصوتون) ككل فان وجهة النظر الوظيفية التي جمعت بين محاسن الاتجاهات السابقة هي التي كتب لها القبول، حيث لم تلغ الجانب المادي التجريبي الفيزيائي في رصد "الصوت" ولا الجانب النفسي العقلي في ربط الصوت المنطوق والحرف المكتوب بالمعنى تفريقا أو تغييرا كما سيأتي لاحقا في تعار يفها،فالفونيم وفق تعريفها هو "أصغر وحدة صوتية عن طريقه يمكن التفريق بين المعاني"[59]، أو هو "أصغر وحدة صوتية تغييرها يؤدي إلى تغير المعنى"[60].

والدراسات اللغوية الحديثة، وكأننا نرجع وسنحاول أن نختم هذا المقال بمقارنة بين النظرة العربية لعلاقة الصوت (الحرف) بمعناه، والنظرة الغربية في اللسانيات الحديثة لهذه العلاقة:

1- إن جذور النظرة العربية أصيلة منبثقة من عمق الجزيرة بصحراء الحجاز الواسعة فيها والتي يصعب ملء فراغها في الحياة البدوية العديمة السكون.

2- بينما النظرة الغربية جذورها يونانية لاتينية ذات أسس أرسطية" فالحركة عند أرسطو شيء غير معقول إذ أساس التراث اليوناني هنا هو تجميد وتسكين الظواهر، والعقل يستطيع أن يفهم الأشياء وهي جامدة، وبه يصل إلى الوحدات الأولية، فهو يتأمل الأمور خارجة منها الحياة"[61]. وهكذا كانت نظرتهم للحرف في ظل هذه السكونية" فهي تنظر مثلا إلى النص مكتوبا جامدا كأن نقول "مثلا" mončme[62] ضرب "أي يراعون في بنية الكلمة الحرف الخطي لا الحرف بمعنى الصوت كما ضبطه العرب مما جعل المعنى الإعرابي يضيع عندهم فيضطرون إلى مطاردة شوا رده بكثرة الصوائت في تراكيب البنية اللغوية وربما هذا هو السبب في الاضطراب واللبس في القول بالرؤية الاعتباطية لدلالة الحرف عند دوسوسير ضمن النظرية الوضعية للغة البشرية.

وإذا كان الصوت هو أصل الحرف مطلقا في كل الممارسات اللغوية، إلا أن الحدث الكلامي في النهاية هو حدث خطي إذ أن "اندراج الكلام في صلب مسار الزمن يجعله مطبوعا بسمة الخطّية حتى إنها تصبح الخاصية المميزة له عن سائر الأنظمة العلامية في الإبلاغ والتواصل، ذلك أن ارتهان الظاهرة اللغوية بالبعد الزمني في وجودها المنجز فعليا ليس مجرد تفاعل خارجي بين ظاهرتين في الكون تتماسّان عرضا ثم تنفكّ إحداهما عن الأخرى، وإنما هو ارتهان مداره الاقتضاء الداخلي استنادا إلى أنّ حدث الكلام لا يمكن تصوره إلا في صلب الصيرورة الفيزيائية للزمن"[63]. وهذا لا يعني ما أثبته اللغويون وتنبهوا له من أنّ الحدث اللساني على النطاق الصوتي: "متبعّض وتبعّضه مرتهن بتلاحق أجزائه المكونة له ،منها تلك المتعلقة بالأصوات، يقول الآمدي: "إنّ الكلام مركب من حروف منتظمة وأصوات مقطعة تتعاقب وتتجدد ومنها تكوّن الكلمة، ومن تركب الكلمات الكلام"[64]، (أي ينشأ منها). فإذا تأملنا هذا القول فإننا نلاحظ أنه يقوم على مجموعة من الأساسيات الهامة التي يستدعيها المكون الصوتي: فنسجل القيم التالية: الانتظام والتعاقب والتقطيع والتحدد هي من الركائز الهامة في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة."[65].

ولعل خاصية الانتظام هي الخاصية المميّزة التي تمثل محور التنسيق في تصور العلاقة الصحيحة بين الحرف والصوت عموما، ولقد تنبه إلى ذلك ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة عند حديثه عن أن الكلام هو: "ما انتظم من الحروف المعقولة بقصد

الإفادة"، فهو يرى أن الإبانة الفصيحة التي يبلغ بها المعنى تمامه في ذهن السامع هي التي تنطلق من الحرف الذي يحمل في ذاته جزءا من المعنى (دلالة مركبة) أوكل المعنى (دلالة بسيطة فردية).

ويعلل ذلك في كتابه السابق قائلا: "وإنما شرطنا الانتظام لأنه لو أتى بحرف ومضى زمان، ثم أتى بحرف آخر لم يصح وصف كلامه بأنه كلام"[66]، والنون سواء أكانت زائدة أم تنوين هي التي تحقق وتملأ بغنتها فراغ الزمان ليستمر الانتظام و يستمر بالتالي المعنى قائما بين احرف الكلمة أو تراكيب الجمل.

3- أما بالنسبة للهنود وخاصة العرب فكانوا ينظرون إلى الحروف وهي متحركة بتحولات حركاتها الإعرابية المديرة للمعنى رفعا ونصبا وجرا لملء الفراغ الفضائي في الصحراء من خلال التنقل فيه بحثا عن الكلأ ومساقط الغيث، ففي اللغة العربية يتم تحليل الكلمة إلى مادة بنائية أولية تؤول فيها الصيغ المتحركة كلها إلى جذر ثابت يمثل مصدر الاشتقاق وأرومة الانتساب والاستقرار الضابط لتنوعات الحدث الحركي بأزمنته المختلفة في الماضي والحاضر والمستقبل.

هوامش وإحالات

1- في علم اللغة العام أشار الدكتور الباحث عبد الرحمان الحاج صالح إلى مؤلفه هذا ضمن الحلقة الثانية من دراسته المسلسلة والمعنونة بـــ: مدخل إلى علم اللسان الحديث، ص: 51-52، مرجع سابق.

2- لسان العرب، لابن منظور، ج:45، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاضم محمد الشاذلي، دار المعارف ، النيل –القاهرة،مصر، دط،دت، ص: 4050 .

3- انظر: الفوائد التجويدية في شرح المقدمة الجزرية، عبد الرازق بن علي إبراهيم موسى، دار ابن القيم ، دار ابن عفان، القاهرة، ط:2، ت: 1428، 2007، ص: 94

4- دراسات في فقه اللغة، د/ صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:17، سنة: 2009، ص:49 .

5- مدخل إلى علم اللسان البشري، عبد الرحمان لحاج صالح، الجزائر، (مجلة اللسانيات)، مج1، العدد2، سنة:1972، ص: 25-26

6 - المرجع السابق: ص:26

7- ذكره د/عبد ا لقادر عبد الجليل في قائمة مراجع كتابه: المدارس المعجمية (دراسة في البنية التركيبية)، دار الصفا للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط: 01 1999، ص:433

8- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دارا لفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت –لبنان ، ط:02 ت: 2005، ص: 69-70

9- الخصائص، لابن جني، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:01، ت: 2001، ص: 62، 63

10 - المصدر نفسه، ص:64-56

11- النص استشهد به كثير من فقهاء اللغة العربية في العصر الحديث ومنهم مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج 1، ونقلته بتصرف في اللفظ، بيروت – لبنان، ط:4، ت:1974، ص: 244

12- أنظر: الخصائص، لابن جني، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:01، ت: 2001،ص: 552 وكذلك ص:557-558

13- بتصرف، دراسات في فقه اللغة، د/ صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2009 ص:235

14- المرجع نفسه، ص:142

15- مجلة المجمع العربي العراقي، د/ مصطفى جواد، مج (1950-1960)، ن والقلم وما يسطرون، من أسرار حرف النون، ص : 127

16- الجد: الحظ والسعد

17- الخصائص، لابن جني، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط:01، ط: 2001، ص: 553

18- نفس المصدر: ص: 146 .

19- لمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط:1990 ص: 300 .

*- ملامحها: الضمير يعود إلى القيمة التعبيرية للحرف العربي وعلاقة ذلك بصفاته لا للغة العربية.

20- مدخل إلى علم اللسان البشري ، مجلة اللسانيات، د/عبد الرحمان حاج صالح ، المجلد الأول ،العدد الثاني ،سنة 1972 – الجزائر، ص: 34/32 .

21- بتصرف المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، د/تواتي بن تواتي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2008، ص: 34/33 .

22- المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، د/تواتي بن تواتي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر دط، ت: 2008، ص: 34.

23- نفس المرجع، ص: 35 .

24- نفس المرجع، ص: 35 .

25- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك،ج1 ، دارا لفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت – لبنان، ط:02، ت: 2005، ص: 112، كذلك الجزء الثاني، ص: 296.

26- نفس المرجع، ص: 114 .

27- الخصائص، لابن جني، المجلد الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:01، ت: 2006، ص:432 .

28- التسهيل، لابن مالك الأندلسي، تحقيق محمد كامل بركات،دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ط: 1968، ص: 206.

*- مثل سربله الثوب : بمعنى ألبسه من السربال والجمع سرابيل.

29-نفس المصدر، ص:206 .

30- معجم المقاييس اللغة لبن فارس بن زكريا، مج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط79، ص385. كما يقول في باب النون الجزء الخامس، (نظر): "النون والطاء والراء **أصل** صحيح ترجع فروعه إلى معنى واحد وهو: تأمل الشيء ومعاينته ، ثم يستعار ويتسع فيه.

31 - فقه اللغة وخصائص العربية، مرجع سابق، ص:115.

* يمكن الرجوع إلى مؤلف الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاص، التحولات التاريخية للسانيات، طبعة دار هومة، الجزائر، 2009 لمعرفة المحطات الهامة لهذه التحولات.

32- يمكن الرجوع إلى مؤلف الدكتور عبد الجليل مرتاض، التحولات التاريخية للسانيات، السابق ذكره.

33 - اللسانيات الحديثة وأثرها في دراسة القرآن الكريم، د/ عبد الرحمان حاج صالح، محاضرة، ملتقى الفكر الإسلامي، الجزائر،سنة: 1980، ص: ¾ .

34 - اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثالثة، الجزائر، سنة: 2007 ، ص:121-122 .

35- رحلة البحث عن النص في الدراسات اللسانية الغربية، د/ بشير إبرير، إتحاد الكتاب الجزائريين، ط: 01 ، 2009، ص:50-51 .

36- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن: ص: 127 -129، مرجع سابق.

37- بتصرف: اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثالثة، الجزائر، سنة: 2007، ص: 130-132 .

38 - بتصرف: المرجع السابق، ص:128 .

39- المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، د/ تواتي بن تواتي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر ط: 2008، ص: 50-51 .

40 - نفس المرجع: ص:54 .

41- اللسانيات الحديثة وأثرها في دراسة القرآن الكريم، د/ عبد الرحمان حاج صالح، ملتقى الفكر الإسلامي، الجزائر، سنة: 1980، ص: 4-5 .

42- أنظر ما نقله د/عبد المال مرتاض عن رولان بارث وعلق عليه حول محدودية اللسانيات المعاصرة مثبتا في الصفحة 94 من الفصل الثاني نقلا عن الصفحة 42-44 من كتابه نظرية في البلاغة.

43- البنية اللغوية في ضوء المناهج اللسانية، محاضرة مطبوعة الدكتور عبد الجليل مرتاض، طلبة علم الدلالة، دورة 2010، 2011، ص: 06 .

نفس المصدر، ص: 206 .

44-مفاهيم لسانية دي سوسورية، د/ عبد الجليل مرتاض، جامعة تلمسان، دار الغرب للنشر والتوزيع،وهران، ط1، 2010 ص:34 .

45 - المرجع السابق، ص:35 .

46- مجلة دراسات أدبية، مقال الفونيم (الصوتون) ووظائفه في اللغة، العدد السابع، أوت 2010،ص: ،86، مرجع سابق.

47- بتصرف، دراسة الصوت اللغوي، د/ محمد مختار عمر، عالم الكتب ، القاهرة –مصر، دط، ت: 1979، ص: 371 .

*- أنظر، دراسة الصوت اللغوي، د/ محمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة –مصر، دط، ت: ، القول منسوب لكرا مسكي أحد رواد نظرية الفونيم

48- مدخل إلى علم اللسان البشري، مجلة اللسانيات، د/عبد الرحمان حاج صالح، مج:01،ع:02، 1972، ص: 42 .

*- أنظر حديثه عن القوانين الصوتية في الكتاب المشار إليه، الزمان للنشر والتوزيع ،عمان الأردن، ط:1998 من ص: 139 إلى ص: 150 .

49- مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق سوريا، ط:1 ت: 1996، ص: 100

50- بتصرف: دراسة الصوت اللغوي، د/ محمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – مصر، ط:1979، ص:177 .

51- مجلة الدراسات الأدبية، ناصر ألزغول، مقال الفونيم (الصوتون) ووظائفه في اللغة،ع:07، أوت:2010، ص:95/94 .

52 - المرجع نفسه، ص: 95 .

53- دراسة الصوت اللغوي، د/ محمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – مصر، دط، ت: 1979، ص: 175 .

*- بحت: أي مصمت غير قابل للتنوع ولا الانفتاح.

54 - بتصرف، دراسة الصوت اللغوي، د/ محمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – مصر، ط: 197، ص: 181-182
55 – بتصرف، المرجع السابق، ص:370
56- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثالثة، سنة :2007، ص: 98 .
57- المرجع السابق، ص: 94 .
58- معاني الحروف العربية، إياد ألحصني، الجزء الأول، دار سندس للفنون المطبعية والإشهار، الجزائر، ط:2006 ص: 8-9 .
59-دراسة الصوت اللغوي، د/ محمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – مصر، د.ط، ت: 1979، ص: 371.
60- مجلة الدراسات الأدبية، ناصر ألزغلول، مقال الفونيم (الصوتون) ووظائفه في اللغة، العدد السابع، أوت: 2010 ص: 96-97 .
61 - لمرجع السابق، دراسة الصوت اللغوي، د/ محمد مختار عمر، ص: 37.
62- المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، د/ تواتي بن تواتي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر ط: 2008، ص: 37 .
63- التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام مسدي، الدار العربية للكتاب، تونس ليبيا، ط: 02، 1986، ص: 267 .
64- غاية المرام في علم الكلام، للآمدي، تح: حسن محمود عبد اللطيف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1971، ص: 163 .
65- البنية التركيبية للحدث اللساني، د/ عبد الحليم بن عيسى، منشورات دار الأديب، وهران، 2006، ص: 38 .
66- سر الفصاحة، ابن سلام الخفاجي، تح: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد صبحي وأولاده، 1969، ص: 22 .